مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المقالات

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تأملات في اسلوب التكرار القرآني

في ضوء سورة الرحمن

أ . د . أحمد محمد الخراط

كلية الدعوة والاعلام

جامعة الامام محمد بن سعود

الاسلامية المدينة المنورة .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدالله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه وسلم .

عنيت الدراسات القرآنية لدى السلف ببيان اوجه الاعجاز القرآني عناية مستفيضة ، وارتقت لديهم اللمسات البلاغية التي تشرح مواطن الروعة التعبيرية في اسلوبه ومعانيه ، وادركوا الفرق الكبير بين اوجه التعبير عند البشر وطرائق الوحي المعجز . يقول الخطابي[1] : «وانما يقوم الكلام بهذه الاشياء الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم واذا تأملت القرآن وجدت هذه الامور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الالفاظ افصح ولا اجزل ولا اعذب من الفاظه ، ولا ترى نظما احسن تأليفا واشدّ تلاؤما وتشاكلا من نظمه » ويمضي الخطابي في رسالته الثرّة يجمع ازهار الربيع ، ويذيع طرفا من شذاه ويقول : « فحازت بلاغات القرآن من كل قسم من هذه الاقسام حصة ، واخذت من كل نوع من انواعها شعبة ، فانتظم لها بامتزاج هذه الاوصاف نمط من الكلام يجمع صفتي الفخامة والعذوبة وهما على الانفراد في نعوتهما كالمتضادّين لأن العذوبة تتاح السهولة والجزالة والمتانة في الكلام تعالجان نوعا من الوعوره فكان اجتماع الامرين في نظمه مع نبوّ كل واحد منهما على الاخر فضيلة خص بها القرآن »[2] .

وقضية التكرار في التعبير القرآني من القضايا التي تتردد في ساحة هذا الاعجاز للتعرف على اسرارها وطبيعة تذوقها الادبي الجمالي ولا ريب ان اعجابنا بأسلوب القرآن الكريم وروعة ادائه سيكون له بعد اخر اذا ادركنا شيئا من طعم حلاوته ، وتذوقنا طرفا من مظاهر بيانه وسوف نطوف الان في ميدانه الرحب فنختار آية من آياته تكرر ذكرها في احدى السور واذا كان المتأدبون في كل عصر يتفقون على ان الاسلوب القرآني فريد في بيانه عميق في تأثيرة فلعلهم يتوقون الى معرفة اسرار ظاهرة التكرار التي تتضح لنا لدى تتتبع آيه ، ولعلهم كذلك يتوقون الى ادراك اغراض هذه الظاهرة .

تكرّر قوله تعالى[3] « فبأى الاء ربكما تكذبان » احدى وثلاثين مرة ، وقد أثار هذا التكرار فيضا من التساؤلات لدى علماء البيان والمعنيّن بأوجه البلاغة القرآنية في القديم والحديث وهذه السورة سورة الرحمن تسير على منهج السور المكية التي تسعى في بناء العقيدة ، حيث انها تذكر بوحدانية الله وابداع خلقه وتدبيره في الكون ، والمتكلم الذى صح عزمه على الحديث في امر جلل يسعى عادة من خلال فنّ الاقناع والخطاب ان يجدد من يود ان يقنعه ويخاطبه

فيخرج من وسيلة ليشرع في سلوك وسيلة اخرى ، وقد يختصر بين يدي مخاطبه ليوجز ويخفف بيد انه قد يكرر معالم مادة معينة لتحقيق غرضه وتثبيته واسلوب القرآن لا يسير على طريقه واحدة في مخاطبة الاقوام ، وانما يعنى بتنويع اساليب الخطاب ويتأسس بهذا الشأن ، وهذا شأن البليغ المفوه الذى يقصد الى تغيير اوجه بيانه ، وذلك لان النفس الانسانية تتوق إلى التجديد والتطور وقد ادرك علماء التربية هذا المعنى فكانوا يوصون المربين بأن يتعهدوا في عمليتهم التربوية هذا الاتجاه . ومن هنا فان المتتبع لاساليب القرآن يجد ان تذكير الانسان بنعم الخالق وحثه على تدبر آياته حقيقة حرص القرآن عليها وسلك في تقريرها اوجها وطرائق مختلفة منها ان يعدد مظاهر النعم على سبيل الاجمال من غير ان يعقب على كل نعمة بما يستثير المخاطب ليقر بها ، وانما يترك التعقيب ليكون في خاتمة المطاف فيذكر بالواجب تجاهها ، وذلك كقوله تعالى « الله الذى خلق السموات والارض وانزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره ، وسخر لكم الانهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، ان الانسان لظلوم كفار »[٤] فمثل هذا الفيض المتتابع من النعم يعرض على سبيل الاجمال مع ان كل نعمة مسداة من هذه النعم تستحق ان تفرد وتبرز ، ولكنه يشاء هنا هذا الوجه ، ثم يمضي في مسائل اخرى .

وقد يسلك سبيل تعداد النعم طرقا اخرى وشأنه في سورة الرحمن ان يعقد نظومة بيانيه كاملة يخصصها لغرض واحد وهو سوق الالاء العظيمة القدر والاثر وهو في سبيل الوصول الى غرضه يرى ان تكون كل نعمة يعددها منفصلة عن اختها بمقطع له ووقعة العميق ثم تسير المنظومة البيانية وفق المسيرة التالية :

يعدِّد آيات باهرة فيها عجائب من خلق الله ويتحدث عن مبدأ الخلق ومعادهم وهو يفصل كل مشهد حي من هذه المشاهد بلازمة مشحونة بالاستثارة التى تخلع قلوب المؤمنين . ويبلغ عدد مرات اللازمة ثمانيا ثم يفتح الستار على مشاهد جديدة تتضمن ذكر النار ويتبع النظام نفسه حيث يفصل كل مشهد بالاستثارة السابقة نفسها ، ويبلغ عدد مراتها الان سبعا ثم يبدأ المشهد الجديد ليقابل المشهد السابق فيصف الجنان التى اعدها الله سبحانه للمؤمنين به المقرين بربوبيته والذاكرين لآلائه ويسير العرض وفق المنظومة السابقة فيأتى باللازمة نفسها ثماني مرات واذا كانت النفوس المؤمنة قد تشوقت لجنان الله تنتظر المؤمنين لتضمهم الى ظلالها الوارفة وعطائها الفسيح فإن ثمة تخصيصا لمزيد من النعم يظفر بهاثلة من صفوة المؤمنين فيعيشون في جنتين حباهما الله مزيدا من فضله وكرمه مقابل اجتهادهم في نشدان الثواب وتأتى اللازمة السابقة ثماني مرات لتكون كل واحدة منها عقب كل آية يذكرها :

فإن قيل : هل يستحق الثقلان : الانس والجن هذا الالحاح على الاقرار بنعم الله حتى يصل ذلك

الى نيف وثلاثين موضعا ؟ فيأتى الجواب من طبعة الثقلين : حيث الجدل والجحود والبطر والكفران كل اولئك من صفات الانسان كما يقول خالق الانسان : « ان الانسان لظلوم كفار[٥] » ويقول : « وكان الانسان اكثر شيء جدلاً »[٦] والجن كذلك فقد ذكر القرآن في وصفهم : « وانَّا منَّا الصالحون ، ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا »[٧] . وقال : « وإنَّا منَّا المسلمون ومنا القاسطون »[٨] فلا نعجب بعد ان فهمناه مسارب طبيعة الثقلين ان تتوجه اليها الايات بهذا الواقع الهادر لاثارة كوامن الخير فيهم ، واغلاق جوانب الطيش او التجبر .

ان النعم التى اختارها سبحانه في هذه المنظومة البيانية هى ام النعم على الثقلين ولا يكون الخطاب عادة للانس والجن كليهما الا في الامر ذى الاهمية العظمى ولذلك خصص السورة كلها لهذا الامر وناسب ان يكون عقب كل نعمة هذه الوقفة التى تطلب من المخاطب ان يلاحظ نفسه فيكسر من جبورته وجحوده .

ولنأخذ مثلاً على النعم المسداة قوله : ﴿علم القرآن﴾ وقوله : ﴿خلق الإنسان علّمه البيان﴾ . أيها الإنسان : هل يليق بك أن تجحد فضل الله عليك ، مكّنك من درس القرآن ويسّر عليك تلقينه ، وجعل عقبى تدبره الهدى والفلاح أرأيت أيها الإنسان إلى البشرية محروسة من القرآن سالكة دياجير الظلمة الحالكة ، أرأيت إلى الإنسانية قبل أن يضيء لها الدرب ، قارنْ بينها وبين الإنسان حين علّمه ربه القرآن فسما بإنسانيته وصفَتْ عقيدته . أرأيت إلى نعمة البيان يتفضّل بها سبحانه على البشر الذين ألفوها فما أعطوها حقها من الشكر ، وما أنسب استعمال لفظ «علّم» في المكانين ، فلم يقل في الأول : أنزل القرآن ، ولم يقل في الثانية : علّمه الكلام وذلك ليشير إلى أنه سبحانه قد كلأهم برعايته فكان سببًا لهدايتهم ، وسببًا للإبانة الدقيقة عما تجيش به صدورهم .

فاذا كان الثقلان يستمتعون بهذه النعم فقد يمضون بها لاهين عن معادهم ووقوفهم بين يدي ربهم ، وليس عجيبًا أن يكون منهم الجحود وكفران النعمة ونسيان المتفضّل بهما وهل يعرف أغوار الإنسان سوى باريء الإنسان ؟ .

ولعل المتتبع المدقق في مواقع قوله : ﴿فبأيّ آلاء ربكما تكذبان﴾ يلحظ أنه كان يعني بكل استفهام غير ما عناه بالمتقدم السابق ، وإن كان اللفظ متماثلاً ، فهو يذكر نعمة جديدة يخالف مضمونها ما سبقها ، فيمضي الذي يتلو آي الوحي وقد عُرض على قلبه صنوف نعم جليلة فيشكر ربه كلما صادف جديدًا منها فيتكرر اعترافه بخالقه ، حتى لكأن مجموع قلبه يهتف بهذا الاعتراف .

ومن المعروف في فن التربية أن المربّي اذا وضع بين يدي أبنائه حقيقة يود أن يعرضها أمام أعينهم تراه معْنِيًا بكمّ معين ، ولا يكتفي بتقرير واحد ، وهكذا نستوحي من الآية في إلحاحها على جملة استفهامية بعينها ، وترى المربي في الوقت نفسه معْنيًا كذلك بكيف معيّن ، وهذا ما رسمته الآيات ، بتنويع مظاهر النعم وتفتيق مسارب

لها .. وبذلك يستوحي المربي اليوم من الظاهرة الفنية في سورة الرحمن طريقة فذة من طرق التربية والتعليم ، فقد يغيب عن ذهن المتلقي معنى من المعاني فيأتي التكرار الهادف الهادر ليزيل من شروده أو تلكؤه في الاستجابة ، ومع هذا التكرار تنشأ علاقات جديدة يتحقق من خلالها البناء التراكمي المطلوب .

ومن وظائف تكرار الاستفهام في الآية دوام استذكار طائفة من الأسرار تحتويها ، فالاستفهام بصيغته الإنكارية يبدأ بشحنة التوبيخ على الجحود المرئي ، ثم يظهر أن مع التوبيخ لطفًا وعطفًا ، وذلك واضح من اضافة لفظ «رب» إلى الثقلين فهو ربكم العارف بما يصلحكم ، الواهب للخيرات التي تنعمون بجوائها ، ثم إنها ليست نعمة فريدة مُسداة وإما هي نِعمٌ ، فإذا ذكرتموها تبع ذلك شكرها ومعرفة الواجب تجاه خالقها ، فيكون الذكر بذلك السبيل إلى ولوج باب الإيمان .

وها هي الجملة المتكررة تبدأ بما يسمى في مصطلح النحاة «الفاء الفصيحة»[٩] ويعرفونها بأنها الفاء الواقعة في جواب شرط مقدر ، حيث إن التقدير : إذا كان الأمر كما حصل فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان ؟ وهذا الأسلوب يحصر المخاطب النبيه في زاوية محدودة محكمة ليسد عليه باب جدل طائش يهمُّ به ، ثم تنتهي الجملة بلفظ «تكذِّبان» بما فيه من كشفٍ صريح بهذا اللفظ الصريح في الحكم على المتجبِّر العاتي أمام ربِّه لعله يكفكف من غلوائه ، فاذا تحقق غرض السِّياق وانصرف المتلقى عن التكذيب فإن هذا سيكون بمنزلة الضوء اللاَّمع الذي سيقوده إلى التعقل في المسألة . فإذا كنت غير مُكذِّب فإن عليَّ أن أُقرَّ بالبارىء ، وأقوم بما يتوجب عليَّ ، ولا يخفىٰ على البصير النطق ما في الجملة الإنشائية المذكورة من حيوية ورشاقة في بناء شحنات الروع الذي تشيعه في قلب المؤمن التالي للذكر الحكيم . والفرق كبير في هذا السياق بين الإنشاء والخبر . فالساحة التي يرسمها الإنشاء ساحة واسعة من المشاعر الفياضة الرحبة ، في حين أن الخبر عادة يناسب مقام الهدوء وضعف الاستشارة وسموها .

ومن وظائف تكرار الجملة الاستفهامية السالفة مواجهة ما عُهد في الثقلين من إصرار على الانحراف والتعامي عن الاعتراف بمصدر هذه النعم المتعددة التي تشيع بين أيديهم وأمام أبصارهم ، فيكون التنديد بموقف الثقلين على قدر ما تربَّى عليه هؤلاء من إلْف المعصية وما تمنحه من تحجُّر القلب . إن هذه حالة لا يقمعها إلا شدة كشدتها ، وزجر يخلع حجراتها ، لعل صاحبها يفيق ، ومن هنا فالتكرار مقصود لذاته لأنه سيطوِّق الطيش باحكام لبيان جدِّ الخطر وإماطة اللثام عنه : ﴿ولقد وصَّلنا لهم القول لعلهم يتذكرون﴾ [١٠] .

هذه هي بعض وظائف التكرار كما وردت في سورة الرحمن حيث تكرر قوله تعالى : ﴿فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان﴾ نيفًا وثلاثين مرة . ونود الآن أن نلقي بعض الأسئلة والأضواء على هذه المنظومة البيانية الراقية في أدبها ، المعجزة في غزارة دلالاتها .

إذا كانت السورة قد اشتملت على نعم جسيمة

تفضل الله بها على الثقلين وتمثل أشكالاً عديدة ، منها ما يتصل بالحياة الدنيا ، ومنها ما يتصل بالحياة الآخرة ، فثمة التباس في هذا الحقل يقول : سلَّمنا بذلك فما وجه النعمة في قوله تعالى : كلُّ من عليها فانٍ ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ التي يعقبها قوله باللَّازمة المتلاحقة فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان ، فهل الحكم بطريق الجملة الاسمية الدَّالة على الثبوت بفناء الخلق نعمة ؟ والنفس عادة تتوق في هذا المجال بحكم بشريتها إلى البقاء ، بل تعدُّه النعمة الكبرى ولا تنشرح إلى أحدٌ يذكِّرها بحقيقة الفناء وظلمة القبور . فما السر وراء تقرير مآل الجميع نعمة مُسْداة إلى الثقلين ؟

نقول : إنها فعْلاً نعمة عظمى لا تقلُّ عمَّا سبقها أن لحقها ويعود فضلها العميم إلى العباد المؤمين ، وذلك من وجوه عفة ومعانٍ قيمة ، وهذا يعود إلى أن للحوافز في حياة الخلق أثرًا كبيرًا في دفعهم نحو البناء والانتاج ، ومن الطبيعي أن نستثر من تقع عليهم العملية التربوية بالحافز ، وقد أثبتت الدراسات النفسية الحديثة عمق أهمية الحافز وأبعاده . فإذا كان مردُّ الحافز على العمل ناشئًا من ربِّ العزة والجلال ، يتوجه به إلى عباده الذين يحسبون للقائه حسابًا كبيرًا في معاشهم فإنه يقول لهم : إن الفناء قاعدة ثابتة لا مناص منها ولا يفلت منها أحد مهما أوتي من قدرات .

وأمام هذا القرار الرباني فإنَّ المؤمن الفطن يستذكر اللقاء المحتوم بين العبد وبارئه ، وقد قيل : إذ مات العبد قامت قيامته ، فماذا أعددت لذلك اللقاء المرتقب ؟ ومن هنا كان لزامًا على العاقلين أن يعكفوا على أبواب الطاعة يطرقونها ، وموارد الثواب ينهلون منها ، ليكون ذلك بمنزلة الزاد الذي يُدَّخر عند ربهم .

إن التذكير بفناء كل أحدٍ أحدٍ على هذه البسيطة يكون بذلك نعمة كبيرة تجعل المؤمن لا يخلد إلى الأرض فيبطر ويطيش وإنما يحسب حسابًا لحفرته القادمة وفنائه الذي لا ريب فيه ، وما انفكَّ الأبناء يدعون لآبائهم بالخير ، لأنهم ذكروهم بأن يحسبوا حسابًا للوجه الآخر من الحياة .

لقد عدد السياق القرآني من صنوف الآلاء قبل أن يصل إلى قوله : ﴿كلُّ من عليها فانٍ﴾ ، من مثل آلاء يقيم بها أوده ، أو يمتع بصره أو يمخر بأخرى عباب البحار ، بعد أن هداه ربه إلى نواميس الافادة من الجواري المنشآت في البحر كالأعلام ، وقد يحدث أن يكون لدى بعض المخلوقين ركون إلى هذه الآلاء وغيرها فتراه مستغرقًا في التلذذ بها غافلاً عن واجبه تجاه بارئها .. وقد يتجاوز مرحلة الغفلة والانشغال ، إلى مرحلة الكفران ، فالغرور والتجبر فيأتي تذكيره بكونه فانيًا يعيش أجلاً محدودًا في كتاب لينكفيء قلبه الخالي وقد ارتاع ليتذكر اللقاء المرتقب ، فيكفكف من غفلته وطيشه فيكون وقع هذا التذكير طبيعيًا بعد أن قال له : «وهبتك من صنوف النعم ، ولكن لا لتعيش حياتك لها ، لكن تمتع بها وفق المنهج الذي ارتضيه وأنت على كل حال مخلوق فانٍ ، وسوف تلقانا لنحكم على عملك .

وتنحو المقدمة التي سبقت قوله : ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ منحى الدليل العقلي فتقول : ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾ ، ويهبُ هذا الدليل العقلي يقينًا يُثبِّتُ المرء في عبادته ونشدانه رضا ربه ، فاذا كان كل أحد إلى زوال فإن ربَّ العزة والجلال باقٍ حي لا يموت ، فما حجة الثقلين إنْ عتوْا وتجبَّروا وطاشو ، وما زادهم في نهاية المطاف ؟ فالمؤمن إذًا يتعامل مع ربٍ لا يأخذه ما يأخذ البشر في النقص وانتظار الفناء ، أرأيت إلى هذه النعمة المُسداة إلى الثقلين ، فكل منهما مأمور مدرب عظيم ، والجميع وإن كانوا يموتون فإن بارئهم حي قيوم . وتنعكس هذه المعنى في قلب المؤمنين ثقة بربهم وعدالته ، فتراهم حريصين على المزيد من صنوف الطاعة والثواب .

فإن قيل : فما وجه النعمة في قوله تعالى متوعدًا من يستحقُّ العقاب : ﴿يُرسلُ عليكما شُواظٌ من نار ونحاس فلا تنتصران ، فبأي آلاء ربكما تكذبان [11] وقوله : ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون ، يطوفون بينها وبين جحيم آن فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾[12] فما وجه النعمة ؟ وما الآلاء التي يمكن أن يسوقها عزّوجلّ للثقلين ؟ قلنا : إن تنفيذ العقاب الرادع نعمة ـ ولا شك ـ إلى الثقلين ، من وجوه متعددة ، تقول القاعدة التربوية : «وبضدِّها تتميز الأشياء فإذا عُرض أمام المؤمن صور من الجنان التى تجري من تحتها الأنهار ، مُدْها متان من شدة الخضرة الكثيفة وقد ضمَّت الخيرات الحسان والحور المقصورات في الخيام فإن المؤمن يحمد الله ويشكره ، لأنه تفضَّل عليه بكل أولئك بعد حياة حافلة بالاستقامة على هدى الله ، ومن تمام النعمة على الخالق أن يعرض أمامهم من الطرف المقابل صورًا من الجحيم يصطلي بها كلٍ معتد متجبر طائش ، فيزداد يقينهم ثباتًا ورسوخًا لأن المسألة جد : فريق إلى الجنة ، وفريق إلى النار إن الآيات بهذين المسارين المتقابلين استثير وجدان الثقلين ويزداد وضوح المنهج ربَّاني جلاء .

صحيح أن فعل العقاب من حيث الظاهر ليس نعمة ، ولكن وصف العقاب والانذار به من أكبر النعم التي يحسُّ الناس معها أيهم يتعاملون مع رب عادل ذي صفات منزهة عن أي نقص يعتور الخلق فتهتف جوامع قلوبهم : أن الحمد لله والشكر له ، ربٌ عزيز قهّار ، ومن هنا يكون قوله تعالى : ﴿فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان﴾ متناسبًا للسياق الذي تقدمه ، محققًا الغرض المطلوب من شحنته .

الهادرة فتتعاون جواهر المنظومة البيانية الكبرى وتشترك جواهرها للوصول إلى يقين راسخ لدى المؤمنين التالين لآي التنزيل .

وإن قيل : لو استعرضنا نعم الله التى اختصَّها بالذكر في سورة الرحمن ، ثم عقب عليها بقوله : ﴿فبأيِّ آلاء ربكما تكذبان﴾ لوجدنا بعضها خاصًا بالإنس دون الجن ، فلِمَ يقول : «ربكما تكذبان» والضمير يعود عليهما معًا وذلك من مثل قوله : خلق الأنسان علَّمه البيان ؟

قلنا : إن سؤال الثقلين أن يعترفوا بآلاء الله وأن لا يكذِّبوا لشيء منها لا يقتصر على النعم التى تصل ثمراتها إلى فريق دون فريق ، فإنَّ الفريقين

مطالبان بالإقرار والشكر لذلك مطلقًا ، سواء أعاد على كل منهما ثمرة النعمة أم لم يعد شيء منها ، والمقولة نفسها تردُ في النعم التي لا يدركها إلا العالمون وأهل الذكر ، ولا يُدرك حقيقتها عامَّة الناس ، وذلك لأن الجميع مطالبون بشكر الله على عطائه في كل حال . يُضاف إلى هذا أن على الجن أن يتدبَّروا في نعم الله على الإنسان وإن لمن يشأ أن يتفضل بها عليهم ، كما أن على الإنسان أن يتدبر نعم الله على الجن كالقوة الخارقة والقدرة على التشكل وكلاهما من خلق الله .

إنَّ التدبر في آية نعمة من النعم تذكِّر ببارىء النعم وواهبها وهذا أدْعىٰ لأن يكـون كلٌ من الثقلين دائم الصلة بالله . هذا بالاضافة إلى أن إعطاء الله للإنسان طريقة البيان والتعبير نعمة على الجن أيضًا ، أليس في كتاب الله إشارة مفصلة إلى أن رسول الله ﷺ استمع نفر من الجن إليه وأصغوا إلى طرف من أسرار القرآن الكريم عن طريقه وعبروا عن إعجابهم به ، ولمسوا منه أنه يهدي إلى الرشد ، فآمنوا به وأعلنوا أنهم لن يشركوا بربهم أحدًا بعد أن كان سفيههم يقول على الله شططا . أليست نعمة البيان التي أنعم الله بها على الإنسان متمثلين برسوله الكريم ﷺ هي وراء الحقيقة التي هتفوا بها قائلين : «فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخْسًا ولا رهقا» .

ويحسُن بنا ونحن نتأمل البيان القرآني في سورة الرحمن أن نشير إلى آيتين تكررت فيها الإشارة إلى الإنسان بلفظ متماثل حيث قال في الآية الثالثة «خلق الإنسان» . ثم قال في الآية الرابعة عشرة : «خلق الإنسان من صلصال كالفخار» . والواقع أن سياق الأولى غير سياق الثانية وإن كانت الأولى متماثلة اللفظ مع صدر الثانية فالأولى تُذكر في معرض سرد بعض النعم عليه ، في حين أن الثانية تُعنىٰ بذكر بعض أطواره ومبدأ خلقه تمهيدًا لتوبيخه على غفلتـه التي هي ديدنـه وعادته . والآية في سبيل توضيح نشأته الأولى تضرب مثلاً لذلك بمادة تُعرف لدى عامة الإنسان لجذب انتباههم إلى قدرة الله غير المحدودة ، ولعل من الأساليب البيانية المعهودة لدى الفصحاء إبراز ما كان معنى به ابرازًا واضحًا كي تلتفت الأنظار إلى علو شـأنه وتـدرك السر من وراء التوجيه إليه . والقاعدة البلاغية تقول : «الكلام إذا كُرِّرَ قُرِّر» أليس الإنسان أحد الثقلين المخاطبين بصيغة تكررت نيفًا وثلاثين مرة . أليس هـو خليفة الله في الأرض أليس هو موضع عناية ربه ولم يخلقه سدى . وأرسل إليه المرسلين ، وأنعم عليه بنعم لا تحصى فافتح قلبك لبارىء النعم ومنشئك من العدم على نحو ما يشاء ويرضى .

والحمد لله رب العالمين .

الهوامش :

(١) بيان اعجاز القرآن الكريم للامام الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ص ٢٧ .
(٢) الخطابي ص ٢٦ .
(٣) الآية ١٣ من سورة الرحمن .
(٤) الآية ٣٣ من إبراهيم .
(٥) الآية ٣٤ من إبراهيم .
(٦) الآية ٥٤ من الكهف .
(٧) الآية ١١ من الجن .
(٨) الآية ١٤ من الجن .
(٩) انظر : الكشّاف ١ / ٢٨٤ .
(١٠) لاية ٥١ من القصص .
(١١) الآية ٣٥ من الرحمن .
(١٢) الآية ٤٤ من الرحمن .
(١٣) الآية ٦ من الجن .